محنة عاطفة الأبوة عند الأنبياء

– دراسة قرآنية تفسيرية تربوية معاصرة –

أ.د. محمد كاظم الفتلاوي

جامعة الكوفة / كلية التربية (المختلطة)

mohamadk323@gmail.com

٠٧٨١٢٥٢٩٢٢٨

الملخص

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين ٠

أنَّ الأنبياءَ هم ساداتُ البشرِ، وما كان ذكرهم في القرآن الكريم إلاَّ لأخذ العبرة من سيرتهم الكريمة، ولم تقتصرْ محنتهم في حياتهم الشريفة على المعاناة مع قومهم في تبليغ دعوة السماء؛ بل هناك محنٌ كثيرةٌ كابدوها في داخل أسرهم، ومنها محنة عاطفة الأبوة، وأنْ كانت قد توافقت محنتهم مع أولادهم الذكور إلاَّ إنَّ لكل موقفٍ منها درساً تربوياً بليغاً نتعلمه في حياتنا التربوية سواء أكان مع أنفسنا أم عند تربيتنا لأولادنا، فالأنبياءُ في سيرتهم الابتلائية محل مواساة لنبينا الخاتم (ﷺ)، والقرآن الكريم يرشدنا لأخذ العبرة من قصصهم، وكان اختيار الباحث الشواهد لموضوع بحثه من الأنبياء محنة عاطفة أبوة النبي نوح ومحنة عاطفة أبوة النبي إبراهيم ومحنة عاطفة أبوة النبي يعقوب في دراسة قرآنية تفسيرية تربوية وبمطالب ثلاثة تابعهن بخاتمة فيها أهم النتائج وقائمة بالمصادر.

الكلمات المفتاحية: (محنة، عاطفة، أبوة، أنبياء، نوح، إبراهيم، يعقوب، تفسيرية، تربوية).

The plight of fatherly affection among the prophets

–A contemporary Qur'anic interpretive and educational study –

Professor Dr. Muhammad Kazem Al-Fatlawy
University of Kufa / College of Education

The Holy Qur'an guides us to take a lesson from the stories of the prophets. The researcher's choice of evidence for the subject of his research from the prophets was the plight of the affection of the fatherhood of the Prophet Noah, the plight of the affection of the fatherhood of the Prophet Abraham, and the plight of the affection of the fatherhood of the Prophet Jacob in an educational Qur'anic interpretive study and with three demands that he followed with a conclusion in which he highlighted the most important results and a list of sources.

Keywords: (ordeal, emotion, fatherhood, prophets, Noah, Abraham, Jacob, exegetical, educational).

البحث:

محنة عاطفة الأبوة عند الأنبياء

– دراسة قرآنية تفسيرية تربوية معاصرة –

أ.د. محمد كاظم الفتلاوي
جامعة الكوفة / كلية التربية (المختلطة)
mohamadk323@gmail.com
٠٧٨١٢٥٢٩٢٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين ٠

إما بعدُ.. إنَّ كلامنا عن الأبوة في القرآن الكريم المراد منه هو بيان موقف الاباء اتجاه الأبناء، ذلك الموقف الذي قد يضحي الأب من أجله بكل شيء آخر؛ ليسلم له أبنه أو أبناؤه، وما ذلك بعزيز على أب ملأ مشاعر الأبوة وجدانه فتتخلل في كل كيانه.

ومن هذا المنطلق، فإنَّ للأبوة من أهمية خاصة في مجال التربية والتوجيه الحياتي للأبناء، ولهذا احتلت مكانة سامقة في مجتمعات أبوية كمجتمعاتنا، كما يعد الأب المثل الأعلى في تصرفاته بالنسبة للطفل في مراحل التكون الذهني الأولي بحيث يتشرب القيم من الأبوة وتقاليدها وفلسفتها في الحياة.

لهذا كانت مكافئةٌ كبيرةٌ لمن تمثّلت فيه خصلةُ الأبوة، وما فيها من مكامن الحب والرحمة لعيال الرجل، يقول الإمام جعفر الصادق (ع): (إنَّ الله عز وجل ليرحم العبد لشدة حبه لولده)[١].

فإذا أضفنا إلى ذلك أنَّ القرآن الكريم نظرَ الى الأبوة والأمومة نظرةً خاصةً، مليئة الشعور بالحنان والحب والرعاية للصغار، إذا أُوصي الصغار بهما ولم يوصهما بالصغار كثيراً إذ تكفلت الفطرة المودعة بالآباء بذلك، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ﴾[٢]، نعم؛ هناك تأكيد على الأم ؛ لكن لا يعني بحال من الأحوال تهميش الأب إطلاقاً لمقتضى المناسبة في الآيات القرآنية السابقة التي تكلمت عن صعاب الحمل والولادة للأم، يقول المفسر ناصر مكارم الشيرازي: (إن القرآن الكريم عندما تحدث عن مصاعب الأم هنا، ولم يورد شيئاً عن الأب، لا لأنه لا أهمية للأب، فهو يشارك الأم في كثير من هذه المشاكل، بل لأن سهم الأم من المصاعب أوفر، فلهذا أكد عليها)[٣].

١- الكافي، الكليني، ٦/٥٠.

٢- سورة العنكبوت، من الآية: ٨.

٣- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ١٦/٢٦٥.

أهمية البحث:

١. إنَّ هذا البحث يخدم بشكل ما الجانب التأصيلي الإسلامي لعلوم التربية إذ يتناول موضوعاً تربوياً من خلال نصوص القرآن الكريم التي تُعدُّ المصدر الأول للتربية الإسلامية.

٢. يعالج البحث قضية تربوية مهمة في العلاقات الإنسانية التي تمتحن بها الاسر المسلمة اليوم من حيث علاقة الأب بأولاده وبالعكس من عبر النماذج القرآنية.

٣. بيان معاناة ومحن الأنبياء (ع) التي لم تكن حدودها مع قومهم ومعارضتهم لهم فحسب؛ بل هناك داخل البيت النبوي فقد تعرضوا لها تمس الجانب العاطفي الأبوي لهم.

٤. إنَّ طاعة الله سبحانه وانفاذ أمره والتسليم له مقدم على كل شأن آخر حتى، وأنْ كان ذلك يتعارض مع الميل الوجداني والتعلق العاطفي الأبوي.

٥. بيان فضل الأب والحث على برّه من قبل الأبناء، وما كان من النماذج الإيجابية التي عرضها القرآن، وكذلك السلبية منها ففيها الحجة البالغة على أبناء اليوم.

نعم؛ إنَّ للأب دوراً هاماً مهما كان واقعه الديني، فهو يبقى له واجباً البر ما لم يتعرضْ بره مع طاعة ربانية، وأنْ يكون ماثلاً أمامنا دائماً حقه التي صرحت به القيم الإسلامية، ونلحظ ذلك في قول الإمام علي بن الحسين السجاد (عليهما السلام) إذ قال: (وحق أبيك أن تعلم أنه أصلك، وأنه لولاه لم تكن فمهما رأيت في نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه، فأحمد الله واشكره على قدر ذلك. ولا قوة إلا بالله)[١].

أهداف البحث: إنَّ في القصص القرآنية والمواقف التي يذكرها القرآن الكريم لا سيما ما كانت من الأنبياء الكرام من حيث الجانب الإنساني لهم فهي حُجة بالغة في ضرورة اتباع سُبل التربية الرشيدة، وكذلك يهدف البحث الى تعزيز ركن الصبر في طاعة الله سبحانه، واستمرار العمل وعدم اليأس وأنْ تأخر قطاف الثمار، كما ويهدف البحث الى إيضاح التطبيقات التربوية في مجال العلاقات الأسرية الأبوية ومكابدتها بما يفيد المبلغين والآباء والأمهات والمربين.

المنهج العلمي: اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي والذي يُعرف بأنَّه: المنهج الذي يعتمد على دراسة الظاهرة كما توجد في الواقع، ويهتم بوصفها وتحليل خصائصها، وتوضيح درجة ارتباطها مع الظواهر الأخرى، وهذا المنهج يجمع منهجين وهو الأقرب الى الدراسات الإنسانية.

سبب اختيار موضوع البحث: يكمن سبب الاختيار في موارد عدة منها:

١- شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين (ع)، السيد حسن القبايجي، ٤٢١/١.

١. رغبة الباحث الذاتية في خدمة القرآن الكريم في بُعده التربوي الاجتماعي، وكذلك تعزيز الارتباط النفسي الوجداني مع الأنبياء (ع) سادة الخلق والانموذج الكامل للإنسان.

٢. إنَّ مقام الأبوة في جانبه النظري يعدُّ واضحاً للجميع، إلا إنَّ الجانب العملي فيه يحتاج الى تسليط الضوء عليه، وأنَّ ما أورده القرآن الكريم من نماذج قرآنية شملت الجانب النظري والعملي وهو جديرٌ بالبحث والدراسة.

٣. إنَّ محنة عاطفة الأبوة عند الأنبياء الكرام مما يثير كبير تعلق بهم وبسيرتهم الرسالية عند الباحث.

لذا فإنَّ القرآن الكريم وإنْ لم يفرد للأبوة سورة خاصة بها يوضح قيمتها، إلا إنَّه بثَّ معانيها السامية في آياته الكريمة وثبتها في قصصه إذْ تشكلت لوحة فنية عظيمة في ترابطها وقيمتها وفلسفتها، مما أعطت للجانب النظري البُعد الواقعي المثالي الذي يصلح به حال المتلقي ان تأمل بها وتمثلها في حياته ووجدانه وهذا هو غاية إنزال القرآن الكريم على البشرية.

دراسات سابقة: هناك دراساتٌ عدةٌ اطّلع عليها الباحث ولم يكن منها – بحسب تتبعه – ما يشمل موضوع بحثه، وان كان هناك من دراسات متفاوتة قرباً وبعداً عن هذا الموضوع كان منها:

١. العلاقات الأسرية في بعض بيوت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من خلال القرآن الكريم، آل السيد شيخ خالد، العلاقات الأسرية في بعض بيوت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من خلال القرآن الكريم، رسالة ماجستير، السعودية: كلية الدعوة وأصول الدين، قسم التربية، الجامعة الإسلامية، ١٤٣٣هـ.
٢. العلاقات الأسرية في القرآن الكريم، سلوى سليم شلبي، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠٠٧م.
٣. العلاقات الأسرية في حياة الأنبياء في التوراة والإنجيل والقرآن –دراسة مقارنة–، الدكتور وسام حسين سلمان و م. م. رغد عبد الرحيم حسون، ٢٠٢١م.
٤. ألفاظ الأبوة والبنوة ودلالاتها في القرآن الكريم، يحي بن محمد، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، المجلد ٣، العدد ٣٤، ٢٠٢١م.

والمتأمل في هذه الدراسات يلحظ انها توزعت ما بين علاقات الأنبياء (ع) مع أسرهم بصورة عامة فشملت جوانب متعددة من حياتهم الشريفة، وأخرى اختصت بالدلالة اللغوية للألفاظ من غير المساس بالبُعد الإنساني، في حين ان دراستنا الحالية قد حصرت الحديث في موضوع علاقة النبي الأب مع أولاده الذكور، وبالتحديد في محنة العاطفة الأبوية فيها، مستعيناً الباحث في بيان هذه المحنة بآراء المفسرين مع التأكيد على البُعد التربوي فيها.

خطة البحث: يمكن أنْ نلحظ في القرآن الكريم نماذج عدة لمحنة عاطفة الأبوة اتجاه الأبن ذكرها في سورة الكريمة، ويكتفي الباحث على ثلاثة نماذج تمثّلت فيه محنة عاطفة الآباء الأنبياء مع أبنائهم على سبيل المثال

وتقريب مضمونها؛ لغرض التأمل فيها وبما حوته من بُعد إنساني تربوي كبير، فكان المطلب الأول عن محنة عاطفة أبوة النبي نوح (ع)، والمطلب الثاني عن محنة عاطفة أبوة النبي إبراهيم (ع)، والمطلب الثالث محنة عاطفة النبي يعقوب (ع) وفي المطالب كلها كانت الدراسة فيها قرآنية تفسيرية تربوية ثم تلوناهن بالخاتمة وقائمة بالمصادر وعلى النحو الآتي:

المطلب الأول: محنة عاطفة أبوة النبي نوح (ع) مع أبنه:

إنَّ لعاطفة النبي نوح (ع) من أبنه فلها مقدمات، فقد أرسل الله سبحانه نوحاً الى قومه بشيراً ونذيراً وآمراً له فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾[1]، وفي هذه الآية الكريمة جملة معارف نقف عند قوله تعالى: (أنذر قومك) بدل ان يقول: (أنذر الناس)، وفي ذلك جانب تربوي في إثارة الحماس في نفس النبي نوح (ع) اتجاه قومه وخاصته ؛ (ليكون شديد الحرص على ما فيه نجاتهم من العذاب، فإن فيهم أبناءه وقرابته وأحبته، وهم عدد تكوّن بالتوالد في بني آدم في مدة ستمائة سنة من حلول جنس الإنسان على الأرض)[2].

بالإضافة الى ذلك، فقد أطاع النبي نوح أمر ربه سبحانه وانصرف الى قومه بكل جد وعزم مبشراً ونذيراً مشدداً على أنَّ عقاب الله عز وجل قريب أنْ أعرض القوم عن تلبية دعوة السماء الى التوحيد والشريعة، وأرشدهم الى أنَّ الهداية لطاعة الله عز وجل والاستغفار له منافع دنيوية وأخروية، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً﴾[3].

فنلحظ أنَّ النبي نوح (ع) يشير بوضوح الى الأمر بما فيه من نفع الأخرة ونجاة من عذاب النار وتبشير بالجنة والنعيم إلا إنَّه فيه كذلك التبشير بنعيم دنيوي أنْ هم أطاعوه، فإيمانهم بالله سبحانه سبَّب لرفاهيتهم المادية في حاضرهم، ولم يكتفِ بذلك؛ بل أشار الى رفاهية ونعيم مستقبلهم أيضاً الذي لا توجد فيه عقوبة الاستئصال، قال تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[4]، إذ : (إن الإيمان السائر على خط العمل يهيئ للغفران الإلهي الذي يناله المؤمنون بالله العاملون في خط طاعته، فلا يبقى للماضي الأسود أيّ تأثير على مصيرهم المستقبلي في رحمة الله)[5].

بيْدَ إنَّ المدة الزمنية الطويلة التي قضاها النبي نوح في الدعوة، لم يلبِّ دعوته من قومه إلا نفراً قليلاً من فقرائهم وعبيدهم، وتعلل عليه القوم بالعلل، قالوا إنَّه أوى إليه المعدمين وغير ذي الجاه والحقراء منهم، وإنه

١- سورة نوح، الآية: ١.

٢- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧٤/٢٩.

٣- سورة نوح، الآية: ١٠ -١١- ١٢.

٤- سورة نوح، الآية: ٤.

٥- تفسير من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، ١٢٣/٢٣.

ارتكب خطأ في ترك الآلهة التي كان يعبدون الى عبادة الإله الواحد، وكان شر ما فيهم عدم الاستماع لوعظه ونصحه وحججه عليهم، فحرموا انفسهم من الصلاح وعطلوا عقولهم عن الفهم والاستيعاب والتدبر، إذ كلما خاطبهم: ﴿جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً﴾[1].

وإنَّ كان القرآن الكريم لا يحدثنا في هذا الجزء من قصة النبي نوح (ع) مع قومه عن موقف أبنه من الدعوة الجديدة، ولكن ممكن ان نفهم ضمناً ان الشاب لم يظهر لوالده معارضته لرأيه، ولم يناصب الدعوة العداء مع ان الظاهر عدم ايمانه بها، وهذا الموقف نلاحظه اليوم عند كثيرٍ من شبابنا، إذ يؤثرون السهولة في كل شيء، والحياة الضبابية التي لا نستند على برهان ودليل في اتخاذ المواقف، وغلبة العقل الجمعي ورأي الأكثرية والتأثر بالإعلام ووسائله الخبيثة في تسفيه الدين وتصيد الأخطاء من هنا وهناك وتسويقها على أنَّ دعاة الدين من أهل الدجل والدنيا، ومن ثم ضرب الدين بسبب بعض الجهال والمنحرفين المنتمين للدين، وما ذاك إلا ان بعض الشباب لا يفرق بين الدين والمتدين، فما ذنب الإسلام من مسلم جاهل!

وانتقل نوح (ع) الى الجانب الآخر من دعوته فهدد قومه بعقاب الله عز وجل، بيد إنَّ ذلك لم يحدث تغييراً كبيراً في نفوسهم، وهكذا أقبل بأمر من الله على صنع (الفلك) لينجوا به مع المؤمنين به وهم قلة عندما تقع الواقعة. ثم كان الطوفان الذي لم يبق إلا نوحاً والمؤمنين بدعوته: ﴿فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ﴾[2].

وعندما اشتد النزاع والجدال بين النبي نوح وقومه، كان على الأبن انْ يتخذ موقفاً من هذه الاحداث المتسارعة في نتائجها، والمتأمل في آيات القرآن الكريم يبدو فيها أنَّ الأبن لم يشطرْ والده في مهمته، ولم يكن له عوناً له فيما فيه من مشاق تحمل الدعوة، فكان ان آثر السلامة، وعزل نفسه عن هذه الأحداث من غير عقل يعمله أو ضمير يوقظه لما يكابده والده من محن عظيمة، فترك منزل والده كما يعبّر القرآن المجيد: ﴿وَكانَ فِي مَعْزِلٍ﴾[3]، على ان هذا الموقف لم يكن صالحاً كما توقع، إذ إن الطوفان شمل كل من لم يركب في السفينة المادية وما فيها من معاني الإيمان والتصديق بالله سبحانه، وقد تنبه الأب بفطرة الأبوة الى غياب ولده وانخراطه في غمار الجماعة المنحرفة فناداه بذلك النداء الحنون المفعم بعاطفة الأبوة الذي يعكس تعلقه بأبنه وارشاده الى سبيل النجاة في خطاب الناصح الآمل فقال: ﴿يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ﴾[4].

١- سورة نوح، الآية: ٧.

٢- سورة القمر، الآية: ١١-١٢-١٣.

٣- سورة هود، الآية: ٤٢.

٤- سورة هود، الآية: ٤٢.

ومع كل ما يحمل هذا النداء من نصح ورحمة ورفق واستعطاف ورجاء وتذكير للولد بحق الأبوة؛ لكن الأبن لم يجبه بالأسلوب نفسه، ولم يخاطبْ ذاك الأب الحاني بكلمة (يا ابت) بل قال بكل صدّ وعناد وايثار الجماعة المنحرفة على دعوة الحق: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾[1].

ولا غرابة أنَّ: (البنوة العاقة لا تحفل بالأبوة الملهوفة، والفتوة المغرورة لا تقدر مدى الهول الشامل)[2]، ثم ها هي ذي الأبوة المدركة الواعية لحقيقة الهول وحقيقة الأمر المحتوم ترسل النداء الأخير والتحذير النهائي، بجواب الأب الشفوق والقلب الملوع: ﴿لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾[3].

مع كل هذه المشاهد والنداءات الأبوية لا زال ابن نوح يردد ترهات الجماعة، ويتبنّى مواقفهم المنحرفة ويركن الى عنادهم في جمود فكري من دون تدبر وتأمل ومقارنة في الأمرين (الحق والباطل) وهو ما عليه بعض شبابنا اليوم في اتباع الثقافات الوافدة والأفكار المعادية لمنهج الدين، وفي هذا الخضم هذه الأحداث وعظم مسؤوليات الأب لكن الأمر لم ينته بين نوح وأبنه، بيد أنَّ للأبوة موقفاً أشد هولاً حيث أقبل نوح النبي الرسول وهو سيد المؤمنين بالله تعالى في تلك الحقبة على ربه سبحانه في نفس تحمل لوعة الألم والاسى ليبث شكواه إلى الخالق لإنقاذ أبنه وتخفيف حسرته عليه فقال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾[4].

فقد ناجاه الله سبحانه وتعالى وواساه إلى الحد الذي ينبغي أن يلتزمه النبي نوح (عليه السلام) مع حكمة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾[5]، وللمتأمل هنا يلحظ ان قوله تعالى: (يا نوح) تعزية كريمة من رب كريم، فقد ناداه الله عز وجل باسمه، كما يدعو الخليل خليله: (يا نوح).

ونلحظ في قوله تعالى: (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ)، يشير إلى أن هذا الأبن وانْ كان من صلبك فهو ليس من أهل بيتك المنسوبين إليك ولاءً وطاعةً، إذ إن أهلك هم المؤمنون بك، ولهذا بيّن الله سبحانه للنبي نوح (عليه السلام) عن السبب الذي من أجله لم يكن أبنه من أهله، فقال عز وجل: (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ)، أي إن عمل أبنك وموقفه من الدعوة والرسالة من الأعمال غير الصالحة، يقول العلامة محمد حسين الطباطبائي: (فالمعنى: ان ابنك هذا ذو عمل غير صالح فليس من أهلك الذين وعدتك ان أنجيهم)[6].

١- سورة هود، الآية: ٤٣.

٢- في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٨٦٩/٤.

٣- سورة هود، الآية: ٤٣.

٤- سورة هود، الآية: ٤٥.

٥- سورة هود، الآية: ٤٦.

٦- الميزان في تفسير القرآن، ٢٣٥/١٠، وقد انفرد التابعي مجاهد بن جبر (ت:١٠٤هـ) والحسن البصري (ت:١١٠هـ) وقتادة بن دعامة (ت:١١٨هـ) بالقول ان المراد بعمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه من صلبه. ظ: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٢١/٥. وهذا الرأي مرفوض جملة وتفصيلاً ومخالف لما صح من سنة المعصوم (ع) والصحابة.

كما إنَّ النبي نوح (ع) لا يضم في ركبه إلا الصالحين من المؤمنين ولا يمسك بين يديه عملاً غير صالح، وهذا الأبن بما يحمل من فكر منحرف وكفر واضح غير لائق ان يكون من خاصتك فهو بهذا يُعد عمل غير صالح فلا يُنسب إليك كنبي من أولي العزم وحامل لرسالة السماء.

ويمكن القول: إنّ هذا لون من الأدب السامي، سلكه الأنبياء والرسل (عليهم السلام) في مخاطبتهم للباري عز وجل ومن أولى منهم بذلك؟!!! ولعل النبي نوحاً (عليه السلام) عندما تضرع إلى الله سبحانه وتعالى بهذا الدعاء لم يكن يعلم أن طلب الرحمة أو النجاة لابنه المتصف بالنفاق أو الكفر ممنوع[1].

وينهى القرآن الكريم المشهد عند هذا بقوله تعالى: ﴿وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[2]، وكانت يقظة النبي نوح عند تذكير الله سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً﴾[3]، انهم هؤلاء الذين دخلوا البيت مؤمنين لهم الغفران وان لم تكن هناك رابطة النسب بينك وبينهم، أو ينبغي أنْ يكون لهم في نظر النبي نوح بعد افاقته من مأساة غرق ابنه، لكنها لوعة قاستها الأبوة الرحيمة أمام ضعف البنوة وعقوقها وتهافتها وإثارها للجانب السهل من الحياة.

وبكلمة.. إنَّ أبوة النبي نوح تمثل انموذج لوفاء الأبوة للبنوة في جميع المواقف حتى تلك التي تصد وتعق فيها وتتباعد البنوة، واتضح ان المبادئ والدين هما الرباط بين الافراد والجماعات لا العواطف والعقل الجمعي، وان كانت للعواطف الإنسانية للحظات هي صاحبة الصولة والغلبة، بيد ان الأمر سرعان ما يستوي عند المؤمنين كما أراد الله سبحانه مع أهل الحق والبصيرة، فيكون التزام الدين ومبادئه هو الأصل وعليه تُبنى المواقف والميول والدفاع والعاطفة.

ونلحظ من أبوة النبي نوح (ع) أنّ مهام الأب هو الهداية والتربية والإرشاد، ولا يمكن أنْ يكون ذلك بالإكراه والقسر وأنْ كان الأب محقًّا.

وهناك رسالة إنسانية مهمة نفهمها من أبّوة النبي نوح (ع) ومواقفه اتجاه أبنه وهي أنَّ الأب الذي يبذل وسعه في تربية الأولاد وارشادهم لا يتحمل المسؤولية عن انحرافهم وحين ذاك لا يصح للأفراد أو المجتمع من لوم الأب على السلوك السلبي لهم سواء كانوا ذكوراً أم اناثاً.

والجدير بالذكر، إنَّ قصة النبي نوح (ع) مع أبنه العاق وما فيها من المواقف كانت من أدلة العلماء في تقعيدهم لقاعدة عظيمة في أبواب الفقه تضبط العلاقة بين الوالد وولده، ألا وهي أن (العدل في العلاقة بين

١- ظ: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ٢١٣/٧.

٢- سورة هود، الآية: ٤٥.

٣- سورة نوح، الآية: ٢٨.

الأصول والفروع يقتضي بأن لا يعاقب واحد منهم بذنب الآخر، ويقتضي بأن لا نلحق الضرر بأحدهما على حساب الآخر، ما لم تكن هناك مصلحة أعظم، ويقضي بإعطاء كل ذي حق منهم حقه)[١].

المطلب الثاني: محنة عاطفة أبوة إبراهيم (ع):

في هذا الموقف الإنساني من الأبوة نلحظ انموذجاً عظيماً آخر، فإذا كان الموقف الأول يعبّر عن أب مؤمن صالح اتجاه أبنه العاق المنحرف منذ أول بدايات الدعوة، فهنا موقف نبي آخر مؤمن صالح اتجاه ولده البار المؤدب، فالمحنة التي واجهتها أبوة النبي إبراهيم (ع) مثل آخر للصراع الطويل الذي يخوضه الإيمان مع النفس لترويضها على الاستسلام التام لأمر الله سبحانه، فإبراهيم الخليل الذي داهمته الشيخوخة دون ان يكون له ولد يسانده في نهاية العمر، ومعلوم بالفطرة الإنسانية ان سعادة الأب أنْ يكون له أبن بار في حياته، يقول الإمام جعفر الصادق (ع): (من سعادة الرجل الولد الصالح)[٢].

كما يمثل النبي إبراهيم انموذجاً راقياً من البشر وهكذا هم سائر الأنبياء فقد كانت من دعائه انْ يرزق ولداً باراً بعد أنْ بلغ من العمر مبلغاً يحتاج فيه من يكون له عوناً في قضاء الحاجات فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٣]، فيُستجاب الدعاء ويُرزق الذرية في شخص أبنه اسماعيل[٤]، فتسر نفسه ويُرد إليه شبابه ووتنشط حيويته، ليكون امتداده الطبيعي فيرث ما يرث منه، وتعود نضارة أيامه، فإذا بلغ الطفل مبلغاً من العمر وقارب الفتوة، وبدأ يحمل عن أبيه بعض من أعباء الحياة وإنجاز شؤونها وقد عبر القرآن الكريم عنه في قوله تعالى: ﴿بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾[٥]، أي: (بلغ سنّ من يمشي مع إبراهيم في شؤونه)[٦]، ومعلوم أنَّ الذي بلغ مع الولد السعي هو الأب، إذ انَّ الأب (أرفق الناس به، وأعطفهم عليه، وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله، لأنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده)[٧].

١- الأحكام الخاصة بالعلاقة بين الآباء والأبناء، محمد محمود أحمد الطرايرة، ص٤٣.

٢- الكافي، الكليني، ٣/٦.

٣- سورة الصافات، الآية: ١٠٠.

٤- يرى بعض المفسرين ان المقصود بالذبح هو إسحاق وليس إسماعيل، ومنهم المفسر القرطبي (ت:٦٧١هـ) واستدل بأقوال كثيرة لتأكيد رأيه، ظ: الجامع لأحكام القرآن، ٢٣٤/٨، ونرى ان هذا الرأي مع ما يحشد له المفسر من أقوال لا يصمد كثيراً أمام كثير من القرائن، منها ان هذه الآراء منبعها اهل الكتاب وقولهم ليس بحجة وان وافقهم بعض الصحابة وان إسحاق لم يكن في مكة، ويكفينا ما ورد من الحديث المتفق عليه قول النبي (ص): (انا ابن الذبيحين) يعني جده الأعلى: إسماعيل، وأباه: عبد الله بن عبد المطلب، وأكده أهل بيت العصمة (ع). ظ: عيون أخبار الرضا (ع)، الشيخ الصدوق (ت:٣٨١هـ)، ١٨٩/٢، المستدرك، الحاكم (ت:٤٠٥هـ)، ٥٥٤/٢، ومن المعلوم ان النبي الخاتم من ذرية النبي إسماعيل (ع).

٥- سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

٦- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦٣/٢٣.

٧- تفسير الكشاف، الزمخشري، ٥٥/٤.

وهذه الآية الكريمة تشير بكل وضوح الى ان العلاقة بين الأب وأبنه كانت علاقة تجاذب لا تنافر، علاقة صداقة وتفاهم وتعاون، واتحاد في الفكر والمعتقد، وهذه العلاقة البارة الطيبة أمل كل أب وغاية ينشدها الإنسان في ذريته من قبل ان يقترن ويرزق بها.

ثم يأتي الابتلاء الرباني لهذا الأب الحاني وقد تعلق بولده وبدأ يرى آثار نفعه له في حياته: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[1]، وفي هذا المشهد القرآني الإنساني نلحظ عدة أمور تربوية منها:

إن رؤيا الأنبياء (ع) لا كرؤيا البشر الآخرين، فهي أمر من السماء للفعل، والأمر هنا هو ذبح الولد بيد أبيه، وانَّ سبب كون الأمر السماوي جاء عن طريق الرؤيا وليس عن طريق الوحي المباشر فذلك (إكراماً لإبراهيم عن أن يزعج بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة لأن رُؤَى المنام يعقبها تعبيرها إذ قد تكون مشتملة على رموز خفيّة وفي ذلك تأنيس لنفسه لتلقّي هذا التكليف الشاقّ عليه وهو ذبح ابنه الوحيد)[2].

والأبُ على شدة إيمانه ورسوخ يقينه بأمر السماء وإنَّه سامعٌ مطيعٌ لا محالةَ لأمر خالقه، فهو سبحانه أحب إليه من ولده الوحيد إلا إنه يعرض الموضوع على أبنه فيقول له: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، وهنا وقفة ندرك فيها أن إبراهيم الخليل في محل استشارة لأبنه، ليعطينا درساً تربوياً أخلاقياً في الحوار.. إذ راح يوضح لأبنه الأسباب وعلاقة الود والرحمة والاحترام وأنه (ع) حاور أبنه إسماعيل (ع) مراعياً شبابه.

في حين، نلحظ أنَّ النبي إبراهيم (ع) أحسن في محاورة ولده مع خطر الموضوع، ولم يأمره بالتسلط والقوة تحت عنوان هذا أمر الله تعالى ولا يهمني مشاعر ابني وعدم إدراكه للأمر؛ بل تخلق بالحوار الراقي والوعظ الحنون العاطفي الرقيق مع أبنه الشاب، مع ان النبي إبراهيم (ع) ليس (مأموراً بذبح أبنه جبراً)[3]، بمعنى لو رفض الولد الأمر وعصى والده ما كان من النبي إبراهيم استعمال القوة والفرض إذ الموضوع موضوع اختبار وطاعة واجر وثواب ولا يتحقق هذا من غير قناعة وتسليم، ولعل ذات الأمر كان من النبي نوح (ع) إذ لم يفرضْ على ابنه النجاة والركوب في السفينة.

إنَّ الوعظ أسلوب دعوي تربوي يقصد منه ملامسة خبايا القلب الصالحة وتحريك مكامن الخير في النفس، ذلك أن (في القلوب شفافية عجيبة، تظهر وتتأثر بالكلمات الرقيقة وبالمواقف المؤلمة التي تستعطف العواطف فتعدو بها نحو الخير)[4].

١- سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

٢- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦٤/٢٣.

٣- المصدر نفسه، ٦٤/٢٣.

٤- أصول التربية الإسلامية، خالد حامد الحازمي، ص٣٩٧.

فكان الجواب الطبيعي من الشاب المؤمن هو الامتثال لأمر والده من غير تردد أو وجلّ: فـ ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، فنلحظ هنا ان الشاب قد أجاب والده على الفور ولسان حاله قبل مقاله يقول: (لا رأي لي ولا أمر مع أمر الله وأمرك.. يا أبت اذبحني فلا قيمة للحياة في جنب مرضاة الله ومرضاتك.. افصل يا أبت رأسي عن جسدي وأنت عندي البر الرحيم ما دمت تبغي وجه الله وتستجيب لدعواه ..)[1].

ولم يكتفِ الولد البار بهذا فحسب؛ بل أخذ يخفف عن أبيه هول الأمر ويهون عليه عملية الذبح وأنه سيتلقاه برباط الجأش وقوة اليقين فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، ان هذا التسليم المطلق للشاب مما يثير العجب (أمام أمر الله، إذ استقبل أمر الذبح بصدر مفتوح واطمئنان يحفه اللطف الإلهي، واستسلام في مقابل هذا الأمر)[2].

ومن هذا المنطلق، فقد جاء في بعض الاخبار أنّ الأبن قال: (يا أبت اشتد رباطي حتى لا اضطرب، واكفف ثيابك لئلا يتنضح عليها شيء من الدم فتراه أمي فتحزن، وأسرع مر السكين على حلقي ليكون الموت أهون، واقذفني للوجه لئلا تنظر إلى وجهي فترحمني، ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع، وإذا أتيت أمي فأقرئها مني السلام)[3].

والمتأمل بين موقف ابن النبي إبراهيم وابن النبي نوح يلحظ التباين الواضح، فالأول دعاه والده ليذبحه فما كان منه إلا الانصياع والطاعة، والأخير دعاه والده للنجاة فما كان منه إلا العصيان والعقوق، فكانت خاتمة ابن النبي إبراهيم الفوز في الدارين والثاني الهلاك في الدارين.

لذا، فقد كان الأبن عوناً لأبيه في أمر دينه ونفاذ أمر ربه سبحانه، وفي أضنك المواقف وأخطرها، وهذا لا يعني ان لا وجود لمشاعر الأب الذابح أو الأبن المذبوح، ولكن قوة الإيمان وثبات اليقين هي المحرك للأفعال والإرادة.

فكان حقاً انْ يصف القرآن الكريم ما عاناه النبي إبراهيم الخليل الأب الذي انتظر الأمل طويلاً في ان يُرزق بولد صالح يترعرع في حجره بان يصفه بالبلاء، وأي بلاء انه البلاء المبين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾[4]، لأن (عملية ذبح الابن البار المطيع على يد أبيه، لا تعد عملية سهلة وبسيطة بالنسبة لأب انتظر فترة طويلة كي يرزقه الله بهذا الابن، فكيف يمكن إماتة قلبه تجاه ولده؟ والأكثر من ذلك استسلامه ورضاه المطلق

١- التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، ٣٤٠/٦.

٢- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ٣٦٩/١٤.

٣- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠٤/١٥.

٤- سورة الصافات، الآية: ١٠٦.

– من دون أي انزعاج – لتنفيذ هذا الأمر، وتنفيذه كافة مراحل العملية من بدايتها إلى نهايتها، بصورة لا يغفل فيها عن أي شيء من الاستعداد لعملية الذبح نفسياً وعملياً)[١].

فيما سبق، فقد يتضح إنَّ المقصود من هذا الابتلاء إظهار عزم الأب الخليل في إنفاذ أمر السماء وإثبات لعلوّ مرتبته في طاعة ربّه، وان (التضحية بالنفس والأهل امتثالاً لأمر الله هو وحده المحك للمؤمن حقاً وواقعاً، والحد الفاصل بينه وبين من يُخيل إليه أنه من المؤمنين وما هو من الإيمان في شئ)[٢].

إنَّ الولد عزيز على نفس الوالد، والولد الشاب الوحيد الصالح الذي هو أمل الوالد في مستقبله أشدّ عزّة على نفسه لا محالة، فبعد أن أقرّ الله سبحانه عينه بإجابة سؤله ان يرزقه الولد الصالح أمره بأن يذبحه، وان ذبح الولد الوحيد يعني ان ينعدم (نسله ويخيب أمله ويزول أنسه ويتولى بيده إعدام أحب النفوس إليه وذلك أعظم الابتلاء)[٣].

من المعلوم أنَّ في مواقف الأنبياء (ع) التي أوردها القرآن الكريم فيها العبرة وكذلك الحجة علينا، لما فيها من القدوة والتأسي، وموقف النبي إبراهيم الخليل هنا فيه رمز للتضحية والإخلاص الحقيقي الذي لابد أنْ تستلهم منه الأنفس تلك الصفات الحميدة والهمة الكبيرة والتفاني الثابت على يقين الطاعة، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[٤]، أي الثناء الجميل في الأمم بعده، فما من أمة من الأمم إلا تذكره وتصلي عليه وتحبه وتقدر مقامه (كرمز لاحترام موقفه، ليكون ذلك عبرةٌ للآخرين في ما يريدهم الله أن يؤكدوا به موقفهم الإسلامي في طاعته، وتحية للقدوة الرائدة المتمثلة في شخص هذا النبي العظيم الذي تقدم بكل وداعة الإيمان وصفاء الإسلام وقوة الإخلاص لله، ليذبح ولده الذي تجاوب معه فاستعد لتقديم نفسه قرباناً، في ما يريد الله له ولأبيه أن يجسّداه من طاعته)[٥].

وبعد أنْ اجتاز الأب الحاني والأبن الصالح الامتحان في العزم بتنفيذ الأمر الرباني جاء الفرج الإلهي بالنجاح لهما فحفظ ولده العزيز، ولا يمكن مكافأة الأب الرؤوف بأقل من هذا، فختمت المحنة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٦]، وذلك لأن قصة الذبح محنة شاقة وابتلاء شديد وعلى قدر الابتلاء والمحنة يكون العطاء والإحسان، وعليه يقول المفسر محمد حسين الطباطبائي: (إنا على هذه الوتيرة نجزي المحسنين فنمتحنهم

١- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ٣٦٩/١٤.

٢- التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، ٣٣٩/٦.

٣- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦٨/٢٣.

٤- سورة الصافات، الآية: ١٠٧-١٠٩.

٥- تفسير من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، ٢٠٧/١٩، ظ: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٤٤/٨.

٦- سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

امتحانات شاقة صورة هينة معنى فإذا أتموا الابتلاء جزيناهم أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة، وذلك لأن الذي ابتلينا به إبراهيم لهو البلاء المبين)[1].

المطلب الثالث: محنة عاطفة أبوة النبي يعقوب (ع):

من المشكلات التي تؤرِّق كثيراً من الأسر هي علاقة الأبناء بالآباء ، فما يُسبّبه الشباب من مشكلات قد تهزُّ أركان الأسرة وتعصف بمستقبل هؤلاء الشباب، ومن المحزن ان قد تفشَّت في عصرنا هذه الظاهرة بشكل كبير، إذ تمرد فيه بعض الشباب على الآباء؛ بل قد يخرج بعضهم عن ارتباطه بأسرته، وقد لا يقف الأمر عند هذا الحد وانما يتطور الى عداء بينهم.

وإذا تقدم أن النبي نوح (ع) يمثل الأبوة الطيبة الرقيقة في صراعها مع عواطفها الشخصية، وانتصار المبدأ في نفسه، فإن النبي يعقوب (ع) كان يواجه مشكلة أقسى، إذ كان الاختبار فيه لأبوته النموذج اختباراً قاسياً في مجال علاقاته مع أبنائه جميعاً.

وبما انَّ حدود البحث في البُعد الإنساني للأبوة فلا نسرد القصة أو نستطرد ما كان من حال النبي يوسف (ع)، ولكننا سنتوقف عند بعض المواقف التي نحتاجها من القصة، ونتدبر من خلالها كيف كانت عاطفة أبوة نبي الله يعقوب (ع) ومنهجه في التعامل مع محنته مع أبنائه، واحتواءه لما كان منهم من سوء سلوك، فهذه المشكلة قد نرى منها جوانبَ في بعض الأُسر المسلمة في وقتنا الحاضر.

نعم؛ كان يوسف الصديق غلاماً يافعاً، وَضَئ الطلعة، مليح الهيئة، فتَّان المشاهدة، ماتت أُمُّه وتركته وأخاه بنيامين في الثامنة عشرة من عمره، أشد ما يكونان حاجة الى قلبها الرّءوم، وصدرها العطوف، ولهذا آثرهما النبي يعقوب بالحب، وخصهما بفضل وحنان، ثم كان ما كان من الرؤيا التي كانت مُذكية لهذا الحب، مضاعفة لهذا الحنان، وان كان أخوته أكبر منه سناً إلا إنَّ هذا الحب لم يخف عليهم وان تحوط في الكتمان وان كان في الواقع ان الأب يحب الجميع.

فقد قدّر أبناء يعقوب أنَّ يوسف وأخوه أقرب الى قلب والدهم منهم جميعاً، وعليه قرر أكثرهم بالنتيجة التخلص من يوسف (ع) بالقتل أو الإبعاد ليخلو لهم وجه أبيهم بزعمهم، قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[2]، فمقياسهم الجاهلي هو ان الكثرة (العصبة) هي الأولى بالتقدير والاهتمام لما فيها من دفع عدو وهيبة، فأتهموا أباهم بالضلال، وبطبيعة الحال هنا لا يعنون الضلال العقائدي وانما الضلال في تقييم الأشياء إذ فضّل – بحسب جهلهم – الصبيّان الصغيران على الجماعة النافعة

١- الميزان في تفسير القرآن، ١٥٣/١٧.

٢- سورة يوسف، الآية: ٨.

اليافعة، وهذا كلام فيه قساوة وغلظة واتهام بسوء الظن بنبي معصوم ناهيك عن كون كلامهم مخالف للأدب والاحترام المفروض للأب.

وفي سوء تقديرهم وجهل الحقيقة يقول المفسر الزمخشري (ت:٥٣٨هـ): (يعني أنه يفضلهما في المحبة علينا، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كفاءة نقوم بمرافقه، فنحن أحقّ بزيادة المحبة منهما، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما كما في قوله تعالى: {إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} أي في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك)[١].

ثم يوضحون العلة الحقيقية وهي الاحتكار لهذا العطف الأبوي لهم دون سواهم لما تقدم من شعورهم بالأولوية من حيث القوة والعدد فأخذوا يدبرون المكائد ويعقدون المؤامرات، فيذكر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾[٢]، يقول المفسر محمد جواد مغنية: (تأمروا على قتله، لا لشيء باعترافهم إلا ليحتكروا عطف أبيهم من دونه، وهذا هو منطق الاحتكار والمحتكر، اقتل وشرد، حتى الأقارب والأرحام حرصاً على الأرباح والمكاسب)[٣].

ومع تصرم الأيام وتعاقب السنين والمواقف وما أصاب الأب من وهن على فقد ولده يوسف إلا ان الأبناء لا زالوا يحملون في أنفسهم العقوق وسوء التعبير في قلّة أدب، وظل اتهامهم لأبيهم بما لا يليق، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[٤]، ومعنى قولهم (حرضاً) أي: (حتى تكون دنِف الجسم، مخبول العقل)[٥] جراء حزنك وهمك وهرمك، وقال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾[٦]، أي: (والله، إنك لفي ضلالك القديم أي حيرتك أو خطئك القديم الذي طال أمده، بظنّك أن يوسف حيّ يرزق، ويرجى لقاؤه)[٧].

ومن الغريب بعد ذلك انْ يرى بعض المفسرين أنَّ أولاد النبي يعقوب (ع) من الأنبياء[٨]، وأدنى تأمل في جرأتهم على أبيهم ونبي زمانهم بهذا القول لا يمكن ان يقال بحال من الأحوال انهم من الأنبياء أو من الاسباط

١- تفسير الكشاف، ٢٧١/٤.

٢- سورة يوسف، الآية: ٩.

٣- التفسير الكاشف، ٢٧١/٤، ظ: تفسير الكشاف، الزمخشري، ٤٢١/٢.

٤- سورة يوسف، الآية: ٨٥.

٥- معالم التنزيل في التفسير والتأويل، البغوي الحسين بن مسعود (ت:٥١٠هـ)، ١٨٥/٣.

٦- سورة يوسف، الآية: ٩٥.

٧- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ٢٣٤/٤.

٨- للتوسعة في بيان هذا الرأي ظ: معالم التنزيل، البغوي، ١٥٦/١، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت:٤٢٧هـ)، ١٥٢/٤-١٥٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٤٩/١.

الذين امتدحهم القرآن الكريم، ويؤكد هذا المعنى الإمام جعفر الصادق (ع) حين سؤل أكان إخوة يوسف أنبياء؟ فقال (ع): (لا ولا بررة أتقياء، وكيف وهم يقولون لأبيهم يعقوب: ﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾؟)[1].

وأما اتهام النبي يعقوب بأن تعامله كان فيه تفضيل ليوسف على غيره من ولده فذاك ان صح فحقيقته ان هذه العناية بيوسف ما كانت إلا لصغر سنه، ولكن مرض الحسد إذا داخل نفساً أفسدها وأفقدها الصواب في التقدير الهادئ للأمور، وهكذا كان مع أبناء النبي يعقوب، فقد القوا أخاهم في بئر في طريق القوافل المتجهة الى مصر بقوله تعالى: ﴿وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ﴾[2]. زاعمين كذباً ان الذئب أكل يوسف، ودليلهم انهم بقوله تعالى: ﴿وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[3]، والأب بحاسة الأبوة، وبديهة النبوة لم يصدق هذا الافتراء كله، بل اجاب النبي يعقوب باقتضاب بقوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾[4].

وما قال قولته هذه إلا ان أركان الجريمة غير مكتملة حيث ان (الكاذب لا يمتلك حافظة قوية، وحيث أن أية حقيقة فيها علائق مختلفة وكيفيات ومسائل يقل أن تجتمع منظمة في الكذب، فقد غفل إخوة يوسف عن هذه المسألة الدقيقة... وهي – على الأقل – أن يخرقوا قميص يوسف الملطخ بالدم ليدل على هجوم الذئب... فقد قدموا القميص سالماً غير مخرق فأحس الأب بمؤامرتهم، فما إن وقعت عيناه على القميص حتى فهم كل شئ وقال بل سولت لكم أنفسكم أمرا)[5].

وهنا نتأمل الشعور الذي يسامر هذا الأب جراء ما يدبّره الأبناء بحق أخيهم، ونتأمل في هذه الأبوة التي تلحظ الافتراء في أقوالهم وأفعالهم، هذه الأبوة التي تحمل في خلجات نفسها الحب والعطف للأبناء على حدٍ سواء كيف لها ان تتحمل هكذا نفوس اعماها الحسد وركبها الحقد وحركتها الغيرة المشؤومة!

نعم؛ انها محنة كبيرة وابتلاء عظيم لنفس وديعة ساكنة مطمئنة كنفس النبي يعقوب (ع) وهو على ما عليه من الخُلق الرفيع والعطف العميق الذي يحتوي أبناء قومه ويتألم على عشيرته كبيرهم وصغيرهم فكيف والحال والأمر يتعلق بأسرته وأولاده المباشرين!

ولا يقف حزن النبي يعقوب عند فقد يوسف حتى يدخل عليه أولاده حزناً آخر بأبن آخر وهو بنيامين، وكأن سوء التوفيق لازم هؤلاء الأبناء المشاكسون، وصار النحس يطلبهم بعد ان طلبوه في فعلتهم مع يوسف (ع)، وهنا يستطرد بنا البحث الى سؤال مفاده لماذا كرر الأب ثقته بهؤلاء الأبناء وقد كانت تجربته بهم مؤلمة قاسية؟!

١- بحار الأنوار، المجلسي، ٣١٦/١٢.

٢- سورة يوسف، الآية: ١٦.

٣- سورة يوسف، الآية: ١٨.

٤- سورة يوسف، الآية: ١٨.

٥- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ١٥٨/٧، ظ: تفسير الكشاف، الزمخشري، ٤٢٥/٢.

معلوم انَّ أخذهم ليوسف (ع) كان بعد إلحاح كبير منهم على أبيهم يعقوب (ع)، وقد وثق ذلك النص القرآني في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَاأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ، أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ، قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾[1]، يقول المفسر ابن كثير: (وقد أخذوه من عند أبيه، فيما يظهرونه له إكراماً له، وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسرور عليه.

فيقال: إنّ يعقوب عليه السلام، لما بعثه معهم ضمه إليه، وقبله ودعا له...)[2].

وفي المرة الثانية أيضاً يسجل لنا القرآن الكريم انَّ الأب كان حريصاً على ولده الآخر من تهور أخوته وله معهم تجربة لم يبرد حزنها، وقد ذكرهم بفعلتهم الأولى وما كان من وعدهم إياه بالحفاظ على سلامة يوسف، قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾، أَي: لم يكن منكم من أفعال ما يقتضي الاطمئنان على وعودكم، إذ انكم (وعدتموني من قبل بالمحافظة على أَخيه يوسف، وجئتموني بدونه، وزعمتم أَن الذئب أكله؛ فهل آمنكم على بنيامين إلا بالصورة التي أَمنتكم بها على أَخيه. دون أَي يتغير حالكم، ويدعوني إلى الاطمئنان لوعودكم؟!)[3].

في حين كان الأب في هذه المرة إلا أنْ يتجه بكله الى الله سبحانه من غير اكتراث للوعود التي اطلقها الابناء، قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾: ومضمون ذلك ان (الله خير منكم، ومن سواكم، حافظًا، وهو أَرحم الراحمين، فلذا أَكِل أَمر حفظه إِلى فضله ورحمته سبحانه، ولا أَعتمد في ذلك عليكم، فقد جربتكم فما وجدت فيكم وفاءً بوعد، ولا حفظًا لعهد)[4].

وهنا يتضح لنا ممّا تقدم، أنَّ الحاجة كانت داعية لإرسال أخيهم معهم في المرة الثانية، وانّ الضرورة تقتضي لوجود المصلحة العامة المترتبة على إرساله معهم لما فيه من نفع لقومه في ازدياد كيل بعير في زمن القحط، ومما زاد الاطمئنان لنفس الأب والتغلب على داعي الخوف والقلق منهم بما أخذه عليهم من العهود والمواثيق، وكذلك أن حالهم مع بنيامين، لم تكن لها موجبات داعية لأثارة كوامن النفس الأمارة بالسوء، ومن ثم لن يفعلوا به مثل ما فعلوا بأخيهم بيوسف (ع)، لا سيما وقد رأوا من حزن أبيهم وتألمه عليه، وهذا يكون حاجزاً عن تكرار فعلتهم المشينة.

١- سورة يوسف، الآية: ١١ – ١٤.

٢- تفسير القرآن العظيم، ٣٧٤/٤.

٣- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، ٣٥٢/٥.

٤- المصدر نفسه.

وتمضي الأعوام.. ويعلوا مقام النبي يوسف الدنيوي مع ما له من مقام النبوة كما تروي ذلك سورة يوسف القرآنية، ثم أدت ظروف القحط في أرض قومه الى ذهاب اخوته الى مصر طلباً للقوت وتعرفه بالتالي إليهم، ثم تعرفهم هم إليه، واستقرار العائلة هناك، والمشهد المؤثر في قصة قلب الأب الصبور عندما قدِم بنوه عليه بقميص يوسف فقال متردداً في التعبير عن إحساسه خشية ان يتهم بما لا يليق من ضعف الرأي مع ما فيه من لوعة الألم وهو الضرير لكثرة ما بكى على ولده فقال: ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾[1]، أي (لولا أنْ ترموني بضعف الرأي أي انى لا حس بريحه وارى ان اللقاء قريب ومن حقه ان تذعنوا بما أجده لولا أن تخطئوني لكن من المحتمل ان تفندوني فلا تذعنوا بقولي)[2].

كما أنَّ للولد مقاماً كبيراً في نفس الأب وتعلق يكاد لا يُوصف بتعبير، في حين يرى الباحث ان هناك نصاً يعبر بشفق الرأفة عن العاطفة الجياشة عند الأب وهو فيما خطه أمير المؤمنين علي (ع) الى ولده الحسن (ع) إذ قال: (وجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتى كأن شيئا [لو] أصابك أصابني وكأن الموت لو أتاك أتاني)[3].

نعم؛ إنَّ عاطفة الأبوة كما يصورها القرآن الكريم مسؤولية عظيمة، تتمحور فيها الرحمة والعطف والتضحية من أجل الصغير، وإن هذه الرحمة والعاطفة فطرة ربانية أودعها الله سبحانه في عبادة وتتمظهر في أبّها صورتها عند الصالحين المخلصين منهم، والنتيجة ان الذي أودع هذه العاطفة هو مصدر الفيض لها، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[4].

ومع كل هذه المحن التي واجهت نبي الله يعقوب (ع) وما كان من مواقف أبنائه التي أدخلت الحزن على قلبه الصبور، وقاسى أيام وليالي عقوقهم وتحمل كذبهم وجهلهم، إلا انه لازال يحمل عاطفة الأبوة اتجاههم، ولم يهمل واجبه التربوي ودوره الرسالي في هديهم وارشادهم وتبصيرهم في أمور دينهم وشؤون دنياهم وبكل الوسائل وفي كل مناسبة، ومن ذلك الشأن يذكر لنا القرآن الكريم وصيته لبنيه جميعاً قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَّ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5].

١- سورة يوسف، الآية: ٩٤.

٢- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ٢٤٤/١١، ويرى البغوي ان (تفندون) أي: (تسفهوني)، ظ: معالم التنزيل في التفسير والتأويل، ١٨٩/٣.

٣- بحار الأنوار، المجلسي، ٢١٧/٧٤.

٤- سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

٥- سورة البقرة، الآية: ١٣٠ – ١٣٤.

بهذا المنهج التربوي في التعامل مع الشباب، لا بد انْ يكون الصبر والاستعانة بالله سبحانه رائد المسيرة، والتزام الدعاء لهم بالهداية والصلاح، مع استمرار التوجيه والنصح الطيب من دون تنفيرٍ، واجتناب القسوة والغلظة عليهم؛ حتى لا يزداد نفورهم؛ لأن القسوة تقوي الشيطان عليهم، والغلظة توحشهم من النصيحة، بل قد يلجؤون إلى مَن يقودهم من الأشرار من شياطين الإنس، وكذلك يجب على الآباء ان ألا ينتابهم اليأس ولا يداخلهم الملل من الأخذ بأيدي أبنائهم مهما طال الزمن وعصفت رياح الشطط فيهم فكراً وسلوكاً، والله ولي التوفيق.

الخاتمة

بعد هذا التجوال بقاربٍ قرآني تفسيري في بيوتات الأنبياء (ع) وملامسة ما يمكن بيانه من عواطفهم الأبوية وما أصابها من محنة مع أولادهم نصل الى نهاية المطاف؛ لنسجل أهمَّ ما توصلنا من نتائج، هي:

١. إنَّ العلاقات الاسرية من أهم ما اعتنت به المنظومة الإسلامية في تشريعاتها وآدابها لما لها من الأثر الكبير في بناء الفرد والمجتمع.

٢. اتضح من مواقف الأنبياء الكرام ان طاعة الله تعالى مقدمة على كل ميل نفسي أو عاطفة إنسانية وأنْ كانت عاطفة الأبوة.

٣. اتضح من السيرة البوية للأنبياء (إبراهيم ونوح ويعقوب) عليهم السلام إنّ مهام الأب الهداية والتربية والإرشاد ولا يمكن ان يكون ذلك بالإكراه والقسر وإن كان الأب محقّاً.

٤. لحظنا في محنة أبوة النبي إبراهيم الخليل ان الانسجام الفكري العقدي الأخلاقي بين الأب والأبن يخفف من شدة وقع المصائب ويكون كذلك عوناً في التزام الطاعة لله سبحانه.

٥. لحظنا في محنة أبوة النبي نوح الصفي ان الاختلاف الفكري والعقدي والأخلاقي بين الأب والأبن يأزم الأمور ويبعث على التهلكة وان كان الموضوع دعوة للنجاة والسلامة.

٦. لحظنا في محنة أبوة النبي يعقوب (ع) ان التوافق الفكري والعقدي بين الأب والأبناء انْ يكن فيه البُعد الأخلاقي فذاك سبب لنفوذ إرادة الشيطان وارتكاب الكذب والبهتان وغيره من الآثام.

٧. إنَّ الرسالة الإنسانية المهمة التي نفهمها من أبّوة النبي نوح (ع) ومواقفه اتجاه أبنه هي أنَّ الأب الذي يبذل وسعه في تربية الأولاد وارشادهم لا يتحمل المسؤولية عن انحرافهم وحين ذاك لا يصح للأفراد أو المجتمع من لوم الأب على السلوك السلبي لهم سواء كانوا ذكوراً أم اناثاً.

٨. إنَّ مسؤولية الأب محورية في تربية الأبناء فلا يمكن بحال من الأحوال الانقطاع عن دوره وعليه التوسل بكل وسيلة متاحة لتحقيق الهدف التربوي المنشود.

اخيراً.. ان ما قاساه الأنبياء الكرام نوح وإبراهيم ويعقوب (عليهم السلام) من المحن مما يعجز قلم الباحث عن وصفه بالدقة المرجوة من حقيقته وواقعيته، وفي هذا البُعد العاطفي الأبوي وغيره يمكن ان يتضح لنا بعض شيء عن سر الاصطفاء الإلهي لهم لحمل أعباء النبوة وأداء الرسالة، وكذلك يوضح لنا حجم معاناة نبينا الأكرم النبي الخاتم (ﷺ) وما أصابه من الحزن والألم قبال ما كان قد أصاب الأنبياء الكرام محل البحث، وهو القائل (ﷺ): (ما أوذي نبي مثل ما أوذيت)[1]، إذ كانت رسالته مع الناس أشقّ ودعوته لهم أصعب، وما عاناه أهل بيته (ع) من بعده من محن أوجع في الضمير الإنساني.

وفي **الختام** لا يدعو الباحث أنَّه أوفى للموضوع حقه، لكن يزعم أنَّه بذل جهداً وانتفع مما قرأ وكتب عن سيرة الأنبياء الكرام فعاش محنتهم العاطفية الأبوية في احساسه ومشاعره في موضوع لم يساوره في أنْ يكون بهذا القدر من المأساة والمعاناة، فحقيقية انها محنة عاطفة أبوة الأنبياء (ع) سادات البشر.

❁ وآخر دعوانا أنَّ الحمد لله رب العالمين ❁

١- بحار الأنوار، المجلسي، ٥٦/٣٩.

قائمة المصادر

خير ما نبدأ به: القرآن الكريم.

١. الأحكام الخاصة بالعلاقة بين الآباء والأبناء، محمد محمود أحمد الطرايرة، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٨م.
٢. أصول التربية الإسلامية، خالد حامد الحازمي، دار الزمان، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م.
٣. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م.
٤. بحار الأنوار، المجلسي محمد باقر(ت:١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م.
٥. تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور محمد الطاهر (ت:١٩٧٣م)، مؤسسة التاريخ، بيروت.
٦. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (ت:٧٧٤هـ)، دار صبح، بيروت، ط٤، ٢٠٠٧م.
٧. التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، دار التيار، بيروت، ٢٠١٣م.
٨. تفسير الكشاف، الزمخشري، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م.
٩. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة للطباعة، القاهرة، ١٩٩٧م.
١٠. تفسير من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، ط٣، ٢٠٠٧م.
١١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي محمد بن احمد (ت:٦٧١هـ)، دار البيان العربي، بيروت، ٢٠٠٨م.
١٢. شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين (ع)، السيد حسن القبايجي، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ٢٠٠٢م.
١٣. عيون اخبار الرضا (ع)، الشيخ الصدوق محمد بن علي القمي (ت:٣٨١هـ)، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م.
١٤. في ظلال القرآن، سيد قطب (ت:١٩٦٦م)، دار شروق، القاهرة، ط٣٤، ٢٠٠٤م.
١٥. الكافي، الكليني محمد بن يعقوب (ت:٣٢٩هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٦٧هـ.
١٦. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت:٤٢٧هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٢م.
١٧. المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله (ت:٤٠٥هـ)، دار المنهاج القويم للنشر والتوزيع، سوريا، ٢٠١٨م.
١٨. معالم التنزيل في التفسير والتأويل، البغوي الحسين بن مسعود (ت:٥١٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٨م.
١٩. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت:١٩٨٠م)، دار الكتاب العربي، بغداد، ٢٠٠٩م.